مقالة في التربية

لحضرة الكاتب الفاضل عبد الله افندي المراش نزيل مرسيليا

(تتمة ما في الاجزاء السابقة)

هذا في امر العرام وما يصدر عنهُ من الخطايا اليسيرة والهنات والترّهات الزهيدة فان تجاوز الولد ذلك الى حدّ الغلظة او ارتكب خطيئةً لا يُستطاع ان يُقام عليهِ من اجلها حدٌّ طبيعيٌّ من جنسها ثمَّ ذرائع اخرى لاقامة الحدّ عليهِ يُحاكى فيها فعل الطبيعة على قدر الامكان ويزكن منها ان غلظتهُ هي التي اوجبت قصاصهُ وان هذا القصاص عاقبة تلك الغلظة . ان اطال لسانهُ او رفع يدهُ على احدٍ فألجئهُ ولو بالقهر ان يعتذر الى من اخطأ في حقّهِ و يستغفرهُ ثمَّ باعدهُ مدةً ليزكن ان فعلتهُ تلك هي التي جنت عليهِ ما يراهُ من امتعاضك وسخطك فانهُ ان كان يحبّك كما ينبغي لتيقّنهِ في غير ذلك من الاحوال انك تحبّهُ وتنصح لهُ وتحذّرهُ سوء العواقب وتدفع عنهُ الموبقات كانت مباعدتك اياهُ وموجدتك عليهِ في هذهِ الحال اشدَّ مضضاً عليهِ وانجع فيهِ من تأديبك اياهُ بالضرب

فان ارتكب خطايا اعظم من هذه وترقى مثلاً الى اقتراف ذنب السرقة فعاقبهُ اولاً بالعقاب الطبيعيّ اي ألجئهُ الى ردّ السرقة او تعويضها من مالهِ ان كان لهُ مالٌ او كنت تعطيهِ فلوساً من وقتٍ الى وقتٍ ليدّخرها كما جرت عادة بعض الآباء ثم اقم عليهِ ثانياً الحدّ الاصطناعيّ اعني عزّرهُ وأنّبهُ وباعدهُ او احبسهُ في حجرتهِ مدةً ما . فان عاود الجريمة فزدهُ التأديب بالضرب ايضاً ولكن لا تضربهُ ضرباً مبرّحاً من غير ضرورةٍ بل اجعل القصاص على مقدار ذنبهِ لا على مقدار سخطك . فان ارتكب خطايا يُخشى ان تفضي عواقبها الى هلكتهِ او الاضرار بجسمهِ اي ان لعب بالسلاح او حاول القفز من شاهقٍ

او همَّ بتناول شيءٍ سامٍّ او تصدَّى لغير ذلك من الافعال التي عاقبتها اعني عقوبة الطبيعة عليها ذات خطرٍ على حياتهِ فحذِّرهُ سوء العقبى منها ومرهُ بالكفّ عنها فان لم يرعوِ ولم ينتهِ تعيّن عليك حينئذٍ ان تكفَّهُ عنها بالقوّة الجبرة

اما الشوائب والعيوب الطبيعية فقد ذكرنا في اول هذا الفصل ان طريقة اصلاحها حمل الولد بالرفق والملاينة على الاقلاع عنها بملازمة المناقب التي تضادّها فلا حاجة الى الاعادة

وكلّ الامثلة المتقدّمة تدلك على الطريقة التي يجب عليك ان تحتذيها في تقويم سيرة الاولاد وتدميث اخلاقهم ومعاقبتهم على الخطأ وحملهم على الاقلاع عن العادات الذميمة قِسْ عليها نظائرها ولكن لا تستنتج ان في ذلك علاجاً فعّالاً لا يكذب في حالٍ من الاحوال . فلعمري ان بعض الخلال المستهجنة قد تكون موروثةً من الآباء بل من الجدود فيتعذّر اصلاحها حتى لا تقول بستحيل وبعضها وان لم تكن موروثةً قد يحول دون اصلاحها حائل طبيعيٌّ من بنية الولد او من مزاجهِ . وكثيرًا ما نشاهد اولادًا تتساوى شروط تربيتهم وتتفاوت مع ذلك اخلاقهم لتلك العلّة وقُصارَى ما يستطيعهُ المربّي في هذا الموطن هو ان يقوّي ما رُكِزَ في جبلة الولد من جراثيم الصلاح بقدر الطاقة لعلّها تتغلّب على ما فيهِ من جراثيم الطلاح

ثم انهُ من المحال ان تترقب ان يكون الولد اليافع او ابن العشرين كاملاً في خَلقهِ وخُلقهِ كالكهل او ابن الستّين وهب ان ذلك ممكنٌ فلا تتمنَّهُ بل اقنع بما تيسَّر لان الولد الذي يبلغ من درجة الكمال ما يبلغهُ الكهل المحنَّك هو بمنزلة الولد الذي تشبّ قامتهُ قبل الوقت فانهُ كثيرًا ما يموت مُختضَرًا وان عاش عاش سقيماً وكذلك الولد الذي يسرع نضج ذهنهِ قبل ابّانهِ فانهُ يُفرِغ ما

في وطابهِ وهو حَدَثٌ ثم يقف

وبعد هذا وذاك فلا ترجُ ان يبلغ حدَّ الكمال المطلق احدٌ من الناس لان ذلك غير ممكن في ايامنا هذه

واعلم بانّك ان ارد تَ مهذَّبًا رمتَ الشطط

الخاتمة

قال احد للفلاسفة ان فطرة الولد مركّبة من متضادّاتٍ لا تفتر عن اثارة معترك بين نفسهِ وجسدهِ وان شئت قلت بين ما فيهِ من صفات المَلَك وصفات الحيوان او الطبائع السماويّة والطبائع الارضية . وان احدى جهتيهِ هاتين لا تزال راجحةً تارةً ومرجوحة اخرى حتى اذا تغلبت احداهما على الاخرى تغلباً بيّناً رسخ هو اما في الصلاح واما في الطلاح رسوخاً نهآئيًا وانبنت سائر افعالهِ بعد ذلك على الركن الذي رسخ عليهِ وان غاية التربية ان تظاهر جهة الصلاح حتى يكون لها الغلب على جهة الطلاح

وقال آخر ان غرائزهُ الحيوانية هي التي تستولي عليهِ في اول الامر وتصدهُ عن ان يشعر بشيء غير ما يقع تحت حواسّهِ بحيث لا يدرك سوى المحسوسات المادّية وفيها تجول خواطرهُ الآخذة في النشوء بحثًا واستقصآء حتى لا يرى في غيرها علةً ولا معلولاً وتكون لهُ هي غاية المنى ومنتهى السؤل ولكن اذا اعانتهُ التربية فانبلج لهُ صبح العقل وتمزّقت عنهُ غياهب الجهل واستنارت قوى نفسهِ بعد ان كانت في ظلةٍ مدلهمةٍ انعكس الامر فنشط هو من عقال المادّة وتأتى لهُ ان يدرك المعقولات واصبح يفهم معنى وجودهِ في عالم الانسانية بل ان ما كان يخيَّل لهُ قبيل ذلك ان بهِ لا بسواهُ قوام هذا الوجود رآهُ بنظر العقل غير ما كان يتوهمهُ وتيقن انهُ لم يكن بالاضافة الى الحقيقة الا كالقشر

بالاضافة الى اللب وانهُ هو نفسهُ كان منخدعاً بحلمٍ باطل او خيالٍ زائل

وقالـــ ثالث ان الانسان الذي تتغلب اخلاقهُ الخسيسة على الشريفة يكون منحطًّا في درجة الانسانية وان الذي يستولي عليهِ الهوى لا يبقى لهُ هُدًى وان الذي تسترقُّهُ الشهوات يُحجَب عن نفسهِ نور العقل حتى تتغمس في الظلام فاذا زحزحت التربية ذاك الحجاب الكثيف بزغ العقل على نفسهِ كما تبزغ الشمس على الدنيا من ورآء الغمام وتنير ساكنيهـا بنورٍ لا يخبو ولا ينقطع الاَّ عمَّن يحوّل عنهُ وجههُ وتلاشي الهوى كما يتلاشى الشهاب الذي يسطع في الليل طرفة عينٍ ثم يغيب فلا يُعرَفُ من اين اتى ولا الى اين مضى ولا يُدرَى لهُ حركةٌ مطّردة ولا اسيرهِ اتجاهٌ معلوم

وقالوا جميعاً ان مَن نقيهِ التربية من تغلُّب هواهُ على عقلهِ ومن رجحان صفاتهِ الحيوانية على صفاتهِ الانسانية ينسى لهُ ان يقمع شهواتهِ كافةً او يعدّلها بحيث لا يبقى معها عبدًا للخوف الكاذب ولا زبوناً للامل الخائب ولا يمضّهُ حسد الحسّاد ولا يهجمهُ الحزن ولا يستطيرهُ الفرح بل يسير بسكينةٍ في سبيل العمر وهو غير مبالٍ بالوجدان ولا مكترثٍ بالحرمان كما تسير الشمس في مدارها ولا تبالي بالريح عصفت ام ركدت ولا تعبأ بالغيوم تراكمت ام انقشعت . انتهى

العرب

(تابع لما قبل)

اما صفات الأعراب الادبية فلم تتغيّر عما كانت عليهِ في زمن جاهليتهم

قد واقعوا الوحش في سكنى مراتعها وخالفوهـا بتقويضٍ وتطنيبِ

فهم كما تقدم قبائل ظعنٌ غُزاةٌ تضرب في البيد انتجاعاً لموارد الكلإ وارتياداً